علاقة العلم

بالفن — والدين — والفلسفة — والحياة

لماذا أومن بالعلم — لماذا أومن بالأدب — لماذا أومن بالدين — ثلاث مقالات نفيسة قرأها أبناء العربية على صفحات المقتطف، لثلاثة من قادة الفكر في عصرنا الحاضر. وقد حاول صاحب المقال الأول ان يرينا ذلك التعطش الفكري الذي يلازم العلماء، وذلك الميل الغريب الذي يحملهم على البحث والتنقيب — وحاول صاحب المقال الثاني أن يسمعنا رسالة الحياة وصلاة الروح، التي تجعلنا نسير مدفوعين وراء دعاة الحق والجمال — وحاول صاحب المقال الثالث ان يلج بنا الى معاقل الأبدية وفراديس الخلود، بعد أن لمس روحنا بذلك الشوق المتأصل في الطبيعة البشرية لمناجاة الخالق — وأرانا ذلك الوجد الروحي النازع الى رحمن رحيم

وكأن الانسان قد اراد بالعلم ان يسبر غور هذا الكون العجيب، فيقف على كل شاردة وواردة من شتيت مظاهره — وأراد بالفن ان يشم خمرة الحياة وان يلج بخيالاته في سماوات الغبطة والكمال — وأراد بالدين ان يتصل بالروح الأعظم، ليتكلم فيه، وينبع منه. وفي عقيدتي ان هذه النزعات الثلاث تسير معاً وتعمل على تحقيق هدف واحد، الا أن دعاة كل نزعة اخذوا بين الآن والآخر يناصبون غيرهم العداء، فعملوا على نقض عقد الألفة والوحدة. في هذه العجالة فلذلك حاولت فيها ان أبين العلاقة بين كل دائرة وأخرى، ونسبة كل نزعة الى قرينتها

العلم والفن

ليس الفن الا نتاج لأبدع ما ابتكرته قوانا الفكرية، وصورة لأروع ما اقتنصته مخيلتنا من صور الكون ومعاني الحياة — وان من خواص التحف الفنية ان توجد للنفس لذة عقلية وغذاء روحياً، وان تصور لدعاة الحق الوان الجمال الخفية، وما دراسة القطع الأثرية، والشغف بها، سوى فيض من ذلك الشعور الفني المتأصل في احباب الاله، والذي هو في قرارة نفوس اصحاب الذوق وأرباب الفن، الذين قادهم شغفهم الى عبادة الجمال

وتقديسه ، فكان منهم أن درجوا في الرسم — والعمارة — والشعر — والموسيقى — في مهاد الابداع، وساروا بها الى مراقي الكمال . لكن ما هي علاقة العلم بهذه الدائرة الجميلة، وأي مسوغ يجيز لتلك المجموعة من الحقائق من دوائر الحياة المبوبة والمنظمة ، ان تتعدى على مسرح الفن الحر الساحر الخلاب

للعلم علاقات ثلاث بالفن :

١ — ان هنالك بحثاً علمياً يتناول دراسة الفنون الجميلة — تاريخها وتراجم مبدعيها مع محاولة سبر نفسية الفنان وتفهم نزعاته وخطرات ذهنه — فهناك قطع فنية خالدة ، لا يتسنى لنا ان نستمري جمالها الا عن طريق العلم الذي يرينا الوحدة والتناسق فيها والجمال في مناحيها

٢ — ان العلم يقدم المواد الخام للفن ويمده بكنوزه وذخائره — ولا مراء فالعلم حافل بضروب المواد التي يأخذها ارباب الفن منه ، ويستعيرونها ليصبغوها في قالب طريف ويطبعونها بطابع من السحر . فالعلم بتثبيت اختراعاته واكتشافاته يوسع نظر الفنان وينير عقله ويمده بما يحتاج اليه من مواد البناء . ويبسط امامه افقاً واسعاً ، فاذا ما سئل عن سبب تفوقه في الرسم اجابك . عبقريتي راجعة الى مقدرتي على مزج الادمغة التي اكتسبتها من الطريقة العلمية ، لا في تركيب الاصباغ ، ومزج الالوان . فالمزج دماغي — والمحرك عاطفي ، وما الالوان والاصباغ سوى وسائل

٣ — تأصل الاختلاف بين المسيرين : رغم تلك العلائق الودية بين النزعة الفنية والعلمية هناك شبه مضادة بينهما — وذلك طبيعي لان غاية العلم تباين غاية الفن — ولغة العلم تختلف كل الاختلاف عن لغة الفن — فالعلم الحقيقي ما تجرد من العاطفة ، وابتعد عن الفردية الذاتية ، خلافاً للفن الذي لا يحيا الا بالعاطفة والشوق النفساني . فاذا ما وجدنا لذة في مناظر الكون ، وحاولنا التفكير بها ، دون استمراء جمالها ، خرج العلم بجيوشه وادواته مبدداً كل جمال، ومزيلاً كل روعة . لكن الصواب كل الصواب ان التأمل العلمي السيق لا يبدد اعجابنا بل يزيده ، ولا يخمد توهجه بل يضرم اواره ، لان العلم يرينا اسرار الكون وما فيه من النظم الازلية

تأثيرات الطبيعة : ماذا توحي الينا الطبيعة — وما هو تأثيرها فينا — لا فرق كبير بين ما شعر به الاقدمون من الرهبة والروعة ، امام مشاهد الكون وبين ما نشعر به نحن ابناء هذا الجيل . واول ما نشعر به امام قوى الطبيعة الثائرة الجامحة هو القوة — وتلك القوة بلا مراء علوية قدسية تدبر الكون وما فيه وتسيطر على شتيت الاجرام والافلاك السماوية . فهذا الكون لا يمكنهُ أن يكون نتاج قوى متعددة ، بل هو فيض من منبع واحد ،

ونتيجة ارادة واحدة ، وعقل واحد . وثاني ما نشعر به — هو الاتساع — فحيثما نحلق بنظرنا ونتطاول باعناقنا نرى مناظر تفضي الى اللانهائية او مايقرب منها — من سماء لانعرف لها نهاية الى بحار زاخرة واسعة — وسهول ضافية — وجبال شامخة — وصحارى منبسطة — كل هذه المشاهد وغيرها تنطق بالاتساع

وثالث ما نشعر به — هو النظام — وقد دلفت هذه الفكرة الى الانسان قديماً — عند ما راقب النظام في تعاقب الليل والنهار مما ساعده على وضع نظام السنين والايام — اما محدثونا فقد فرغوا انفسهم للمجهر ولفحص صغائر الاشياء التي لاترى بالعين المجردة ، وفريق آخر حبس نفسهُ لرصد الاجرام النائية ، ومراقبة اكبر الاجرام السابحة في فضاء هذا الكون — وكلا الامرين تعمل على اكتشاف النظم الازلية والنواميس الطبيعية الخالدة وتبينها

ورابع ما نشعر به هو « اخوة الكون » — والعلاقة الدائمة بين مظاهره — فطابع الطبيعة الحركة المستمرة وديدنها التغير والتبدل — تسقط الامطار فتملأ الينابيع وتجري السيول — تتغير في البحار . تبخر اشعة الشمس الماء فتحوله الى غيوم تحصرها الرياح — وتنزلها قطرات ماء تعود الى منبعها الاصلي وهكذا دواليك — تمتص النباتة الهواء والماء ، لتبني انسجتها وتحوله بواسطة تفاعل كيماوي الى نسيج الحياة — لكن الحيوان لا يربأ بها وباتعابها بل يفتات بثمرها ولبابها كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، واخيراً تنتهي ظلمة الحياة الوقتية في ظلمة ازلية — فيؤوب الانسان الى منبت ارومته ، ومنزع قوسه ويرجع يعانق امه الرؤوم فيصدق عليه قولنا « تراب يعانق تراب » لان دود الارض يبدأ يزور جثته ويأوي الى جسده — وجراثيم الهواء تحلل عناصرهُ

نسيج الحياة — فانكون شبيه بشبكة تتصل خيوطها بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً والحياة نسيج أتصلت اوائلهُ باواخرهُ ولا تعرف نهايتهُ والطبيعة سطح ماء ، تكثر على صفحته الاهتزازات والتموجات التي تكون حلقات ، كل واحدة تأخذ برقاب الآخرة ، وثانية تفنى في ثالثة فلا تستغرب لذلك قول دارون ان قال « أن الاكثار من الجائز يزيد في ضخامة الخيل » — فما دارون الا ناطق بمعادلة تصور لنا توازن الحياة ، فالجائز تكثر من ذرية القطط التي تعمل على استئصال شأفة الفيران وقطع دابرهم — فتزحزح الحشرات التي تعمل على تلقيح البرسيم — فيكثر الاخصاب والانتاج — فتسمن الخيل وتضخم

تلك هي مهمة العلوم ان تلاحظ تلك الحقائق ، وتثبتها وتدونها في قالب سهل بسيط ، لكن ليست مهمة الفن ان يحصي لك الاشياء وان يحدثك عن التفاصيل وانما شأنهُ ان يتغنى بصور الكون العلوية . وان يختار مادة الحياة ويرتبها — فيعرضها لك في ثوب قشيب —

وبذلك يكون الفنان اميناً للرسالة التي أؤتمن عليها ، وهي السير بالانسانية نحو المثل الاعلى. جميل جداً ان يدعي انسانٌ انصدق لنحياة والامانة لها — فيصورها في غير محاباة او مبالغة — ويصفها كما تشاهدهُ عينهُ — وتبصرها ذهنيتهُ العلمية ، لكن اجمل من هذا ، ان نرى الفنان يحلق الى فضاء الحقيقة الجميل ، مقدماً على الكبير لانهُ كبير ، ومتلهفاً على الجميل لانهُ جميل — فيقتنص لنا من كل سحر نموذجاً ومن كل فن طرفة . وهل في مقدورك ان تتصور حال الدنيا لو ان الشعراء لم يكونوا والفنانين لم يخلقوا — اكان في مقدور البشرية ان تخطو تلك الخطوات ، أكان في متيسر الحضارة ان تصل حيث وصلت ؟ ! لقد صدق شلي حيث قال « الشعراء مشترعو العالم غير المعترف بهم »

العلم والدين

ما اكثر ما كتب عن الدين والعلم ، والمشادة بينهما — وقليلون هم الذين ادركوا انهُ ليس هنالك ثمة ضرورة للتصادم — فغاية العلم ان يكشف عن الحقائق ويصفها باسهل اسلوب مستطاع ، وتلك الغاية ثابتة في حين ان غاية الدين متغيرة ، وافقهُ أوسع ومجاله ابعد لان دعاتهُ يرون قانوناً أسمى من قانون الحس والادراك ، ففي مستطاعهم ان يفسروا حقائق ليس في طاقة الحواس ان تشعر بها — فكان رجل الدين يعيش في عالم غير عالمنا ويتراءى في افق غير افقنا ويتأثر بالاسرار السماوية التي تحيط بهذا الكون ، فلا عجب ان وجدنا لغة الدين تباين لغة العلم لان غاية الاول التفسير والثاني الوصف

النزاع بين الدين والعلم : لهذا التصادم صور متعددة نلخصها في الامور التالية :

١ — قبول الدين في لبابه حقائق مبنية على الشعور الديني — حقائق ملموسة يدخلها الى صلبه مغلوطة ، ويجادل ارباب الدين دفاعاً عنها ، ويقررونها كصادقة او منزلة ، فكيف يصمت العلماء عن هذا ، وهل في مقدورهم ان يكونوا افواهيم ، وقد رأوا ارباب الدين يتعدون على دائرتهم . فتل هذا شائع — والتاريخ حافل بضروب الاستشهاد ، منها ما حصل لغليليو الذي عارض تلك العقيدة بالدينية بقوله أن الارض غير ثابتة — فقامت ثائرة رجال الدين وعلى مرجل هيجانهم بظهور من بغير عقيدة هي في قرارة معتقدهم ، فرموه بالزندقة ونسبوا اليه الالحاد والخروج عن جادة الصواب ، في حين انهُ لم يك ينطق الا الصواب كل الصواب — وفي عقيدتي انهُ ليس ثمة نزاع ما بين العلم الصحيح والدين الصحيح الا ان النزاع قائم بين قوى العلم والعقل من جهة وقوى المذهب الديني الذي يتخذه بعضهم ستاراً ليخفوا عن الناس تعصبهم الفظيع من جهة اخرى

٢ — اختلاف الافراد في نزعاتهم : ان حياة الانسان شبيهة بموشور ذي ثلاثة سطوح — السطح الاول ويقابله العمل — والثاني الشعور — والثالث المعرفة — وهذه النزعات ترتكز على التوالي على اليد — والقلب — والعقل — ولكل منها مسرب خاص. والناس على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم يكونون قسماً من هذه او مزيجاً منها — فعندنا رجال عمل لا يهمهم من امور الدنيا سوى المادة ، ورجال شعور يتوثبون بخيالهم الى افق الحقيقة الجميل الساحر — ليقتصوا شرارة النبوة التي تتكلم فيهم منذ الازل، ورجال معرفة يصرفون زهرة عمرهم وربيع حياتهم في التجارب والاختبارات وتعليل الظواهر . لذلك يحتم ان يقع التصادم بين اصحاب تلك النزعات المتباينة ، فهذا مشبع بالروح العلمية ، مقدس لها ، عابد حقائقها ، وذلك مترع بالروح الدينية ، مرهف بصوفيتها ، ومستتير بقدسيتها واذن فهناك نزاع بين الافراد لا مفرَّ منهُ ، فهو تصادم بين الطبائع البشرية لا بين الدين والعلم

٣ — تصادم في القشور دون اللباب : كثيراً ما يدخل الدين الى صلبه نوافل لاهي في الخير ، او الشر ، لكن الطبيعة الدينية من الطبائع الرجعية المتأصلة في تكوين البشر الفطري ، فهي تحول دون تطهير تلك الشوائب ، بل تلحُّ على صحتها وبقائها ، لكن تلك النفايات لا تتمشى مع الروح العلمية فتنشب الملاحم بين الفريقين ، وتقتصر على تلك القشور، والغريب كل الغريب أن تلك المصادمة لم تصب بسهمها روح الدين الحقة ، او تتسرب الى نزعة العلم الاساسية — اذن نقول ثانية ليس ثمة نزاع بين العلم الصحيح والدين الصحيح

يتبين لنا من جميع ما ذكرناه ان المصادمة غير حقة ،وأن تلك المشادة ليست بين الدين والعلم ، بل بين بعض ارباب الدين وبعض عشاق العلم ولا ضرورة لتصادم التفسير الديني بالوصف العلمي لان لكل من النزعتين مذهباً خاصًّا ، وطريقاً معيناً لفهم الحقائق ،كلها تعمل على اكتشاف اسرار العظمة والقوة والنظام التي تهيمن على هذا الكون — فالدين له لغة خاصة في فهم الخليقة واسرارها وغوامضها ،كذلك نرى ان للعلم لغة له مغايرة كل المغايرة عن الاولى والعلماء اقل ايماناً من غيرهم بصحة ايمانهم لانهم يدركون تعقيد المسائل الروحية، فيقفون امامها وقفة الصامت الواجم

العلم والفلسفة

ان الفلسفة متجهة صوب المعرفة التي ترمي الى الجمع بين نتائج بحوث العلوم المختلفة وقد لا يشعر بهذه الحقيقة الا القليلون في حين ان السواد الاعظم يشعر بحقيقة العلوم

التي تنتج لهم فوائد محسوسة . تبدأ الفلسفة حيث ينتهي العلم — وهي محاولة لسبر غور الحقائق جملة ، ورؤيتها تحت نور التفكير الشامل المنظم

علاقة الفلسفة بالعلم : اولاً : ضبطاً لفطرسة العالم

كثيراً ما يفخر ارباب العلوم العديدة بتخرصاتهم ونبوءاتهم — فيزعمون انهم تفهموا جميع الحقائق ونفذوا الى دواخلها — ودلفوا الى كنهها — وان الكون بما فيه من قوى ثائرة جامحة قد اصبح تحت سيطرتهم ، وان في مقدورهم ان يكوّنوا عالماً حيّاً يشابه عالمنا ، وان يعيدوا الحياة الى بعض الاجسام الميتة . لمثل هذه الطائفة تبرز الفلسفة من خدرها ، عاملة على اعادة التفكير الى نصابه ولمن فقده من ارباب العلم — فتوقف العالم واجماً امام كثير من اسرار الكون كمعرفة اصل الاشياء وبداءة الحياة ، وباقي تلك الالغاز التي لا تزال في ظلمة حالكة — تبدأ معرفتنا عنها من ظلمة وتنتهي في ظلمة

ثانياً : الجمع بين نتائج العلوم المختلفة

تعطينا العلوم صوراً مختلفة عن الكون — فنرى عناصره من نافذة الكيمياء ، وندرس احياءه من نافذة البيولوجيا ، وتتفهم نفسية الانسان من نافذة البسيكولوجيا ، وندرك حقيقة قوى الطبيعة من نافذة الطبيعيات ، لكنه يتعذر علينا في كثير من الاحايين ان نرى العلاقة بين جميع هذه ، والوحدة التي تشترك بين شتاتها . غير ان الفلسفة تستعرض امامنا نظراً واحداً كاملا للحياة وصورة جامعة غير مبتورة لهذا الكون الواسع العظيم

مسائل وقضايا تجابه الفلسفة والعلم : الكون حافل بضروب القضايا التي لم تتوصل الى حلها — ونحن بفارغ صبرنا نرقب الساعة التي فيها يظهر اولئك الجبابرة الذين جبلهم القوة المبدعة ، بذهنية حادة وعبقرية شاذة ، ليميطوا لنا اللثام عن الاسرار الغامضة — وليجدوا لنا حلاً لتلك الاحاجي . وانه عين الحماقة ان نقف عند حدنا — فالبحث عن الحقيقة يجب ان يكون ديدن ابناء تلك « الدولة الدولية » دولة العلم حتى فناء هذا الكون وزواله . وما عجز عنه اسلافنا فهمهُ احفادهم ، وما كان في الماضي لغز الالغاز اصبح الآن بفضل بعض النوابه من الهنات الهينات — وما كان ينسب الى القوى الخارقة صار ينظر اليه نظرة اعتيادية — فالتساع العلمي يفتح امام الباحث وراء الحقيقة سبلاً غير متناهية . لكن العلماء يقرون بأمور يصعب عليهم الدنو منها ، او البحث فيها منها علاقة الروح بالجسد — اصل المخلوقات — منشأ الحياة والخ . انما علينا ان ندرك اننا نعيش في نسيج من الحياة ، يعاطف احياؤه بعضهم بعضاً ، وتتفاعل عناصره كل لحظة من اللحظات

العلم والحياة

اقبل البعض على العلم حبًّا بالعلم ، فانصبوا على درسه ارواء لذلك التعطش الفطري الذي يستعر في داخلهم ووقفوا حياتهم على البحث والتنقيب في المعامل العلمية ليس لغاية يرجونها سوى تلك اللذة العقلية التي ينشدها احباب الآلهة والبشر وقادة الفكر . وهذا الظمأ العلمي اساس معظم الاكتشافات وهو في قرارة حضارتنا ، والسبيل الى التقدم والرقي

بيد ان فريقاً آخر اقبل على العلم للاستفادة منه في مهنته — فعبد العلم لان العلم يجلب له المال ويسهل عليه مهنته التي حبس حياته عليها . فهذا الفريق بلا مراء من مصاف المادين الذين يشأون كل لذة عقلية ، ويحتقرون العلوم النظرية لانهم لا ينظرون الا الى الشق العملي منها اولئك يودون ان يقطفوا الثمرات الناضجة متناسين انهُ ليس من اثمار تجنى ان يبست الجذور وذبلت ، وعلاقة العلم بالصناعة واضحة في الاساطير الاغريقية وجلية فيها . (فولكان) اله الصناعة اخذ ينازل (منيرفا) الهة الحكمة والعلم ، الا ان هذه ابت التزاوج ، وأرادت الاحتفاظ بطهارتها وبتولتها ، وتقاوة قليلا فظلت تخدم البشرية، وتقدم لها تقدمات تفوق تقدمات بروميثيوس خادم الانسانية . فالعلم عليه ان يحافظ على قدسيته، بأن لا يلج الى عالم الماديات الضيق او على الاقل ان لا ينحصر فيه

يقول سبنسر « ان العلم للحياة وليست الحياة للعلم » لانه جسر تسير عليه المدنية اثناء رحلتها ، ودعامة للحياة اثناء بقائها — العلم خادم للفن — والأدب — والدين والفلسفة ، العلم واسطة يذوق ابناء هذا السيار سعادات ، ويرفعهم من حمأة الأرض، الى فردوس النعيم . « العلم قوة اما للخير واما للشر فهو شبيه بالكهربائية التي اذا ما قيدت وضبطت حصل منها النور الذي تنير به انديتنا ومنازلنا ، واذا اطلقت بلا قيد حصل منها صواعق تقتل وتدمر » هو كالسيف في يد الفارس فان استعمله في سبيل الخير ومحاربة الشر ورفعة بني الانسان كان بركة له لا تضاهيها اية بركة ، اما اذا استعمله للخراب والقتل والتدمير كان شؤماً له ولعنةً على الانسانية جمعاء

فعلى يد دعاة العلم الحديث مصير الانسانية — فان شاءت تعاونت مع الفن لتصوير صورة الجمال العليا ، وآزرت الدين في نزوعه ، القدسي العلوي — وان ارادت حولت قوتها للفتك والبطش فذهب ابناء هذا العصر فريسة العلم ومكتشفاته. فعلى مقدور العلم ان يكون بركة اي بركة لابناء هذا العالم الهالكين وان يحقق لهم ذلك الحلم السعيد — عصر سلام وطمأنينة طالما تاقت البشرية الى تحقيقه

ابرهيم مطر
الناصرة ب . ع